العدد 2103 - السنة السابعة
الجمعة 15 جمادى الأولى 1436 - الموافق 6 مارس 2015
Friday 6 March 2015 - No.2103 - 7th Year

كان شائعاً في الجاهلية نتيجة للسبي في الحروب والغارات

من أسرار القرآن.. تحريم التبني وإلزام النسب إلى الأب

- اعتبره الإسلام من الكبائر لما يستتبعه من اختلاط للأنساب واطلاع على عورات غير المحارم وإرث من لا حق له
- العلاقات الأسرية ينبغي أن تؤسس على ما شرعه الله من روابط النسب والدم لا على أساس الأهواء البشرية
- الإسلام واجه الفوضى بضوابط إقامة الأسرة على أساس ما شرعه الله
- بعد الاجتهاد في رد الأنساب إلى أصولها ليس على المؤمنين حرج في حالات العجز عن الاهتداء إلى النسب الصحيح

يقول ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه: « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

و«الادعياء» جمع «الدعي»، وهو الذي يدعي ابنا لغير أبيه وليس بابنه، و(التبني) كان شائعا في الجاهلية نتيجة للسبي حيث كان يسبي الأطفال والفتيان فيمن كان يسبي أثناء الحروب والغارات التي كانت تشنها القبائل العربية ضد بعضها البعض.

وكان الرجل من القبيلة التي سبت يعجبه أحد هؤلاء السبايا، فيأخذه ويعطيه اسمه ونسبه، فكان يعرف بين الناس باسم الرجل الذي تبناه وأدخله في أسرته، وأعطاه كل حقوق البنوة وواجباتها، ومنها حرمة تزوجه بمطلقة من تبناه، كما تحرم مطلقة الابن الحقيقي على أبيه، فأبطل الله - تعالى - حكم التبني، كما أبطل حكم الظهار، «ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ» أي أن كلا من الظهار والتبني هو مجرد قول باللسان لا حقيقة له، ولا علاقة له بالواقع فلا يترتب عليه أي حكم. «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ» أي ينبئكم ربكم بالقول الثابت المحقق الذي لايخالطه شيء من الباطل أبدا، «وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» أي أن بيان الله - تعالى - يرشد الى سبيل الحق والى طريق الصواب والنجاة، وذلك لأن من الحق قيام العلاقات الأسرية على ما شرعه الله - تعالى - من روابط النسب والدم، لا على أساس من الأهواء البشرية.

«ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ...» أي: انسبوا هؤلاء الأولاد الى آبائهم الحقيقيين، لأن ذلك هو أعدل عند الله فإن لم تعلموا آباءهم الذين جاءوا من أصلابهم، فهم إخوانكم في الدين ومواليكم، و(المَوالي) جمع(مولى) من الولاية، و(المولى) هو الإنسان الذي يربطه بغيره حقوق متبادلة، واللفظة(مواليكم) تعني إخوانكم في الدين، ولا إثم عليكم حين نسبتم هؤلاء الأطفال والغلمان الذين تبنيتموهم وأعطيتموهم أسماءكم خطأ منكم، ولم تدعوهم الى آبائهم الأصليين، ولكن الإثم فيما قصدته قلوبكم عمدا بعد أن تبين لكم الأمر، والله يغفر لكم خطأكم، ويقبل توبة الذين تعمدوا التبني منكم إذا تابوا بصدق توبة نصوحا، وقاموا بتصحيح الأخطاء التي وقعوا فيها بتبني أبناء غيرهم ونسبتهم إليهم بغير حق.

وعندما جاء الإسلام أبطل (التبني) وجعله محرما لأن فيه نسبة الولد الى غير أبيه، وما يستتبعه ذلك من اختلاط للأنساب، واطلاع على عورات غير المحارم، واحتمال الوقوع في زواج محرم، وارث من لاحق له في إرثه، ولذلك اعتبره الاسلام من الكبائر التي توجب السخط والغضب من الله - تعالى - على فاعله، وفي ذلك يروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقواله الشريفة التالية:

(1) «من ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى الى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا».

والصرف هو التوبة، والعدل هو الفدية، بمعنى ان الله - تعالى - لايقبل ممن يقوم بالتبني توبة ولا فداء.

(2) «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلم إلا كفر».

(3) «من ادعى الى غير أبيه - وهو يعلم انه غير أبيه - فالجنة عليه حرام».

وواضح في كل من الآيتين القرآنيتين الكريمتين(5،4) من سورة الأحزاب، ومن الأحاديث الشريفة حرمة تعمد دعوة الإنسان لغير أبيه، أما نداء الصغير بتعبير الابن من قبيل الشفقة والتودد والتكريم فلا علاقة له بموضوع التبني لا من قريب ولا من بعيد، وبالمثل فإن دعوة الكبير بنداء الأب من قبيل الاحترام والتوقير والتبجيل فلا علاقة لذلك بقضية التبني على الإطلاق، وثابت أن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - نادى أنسا قائلا يا بني.

وعلى ذلك فإن قول ربنا - تبارك وتعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

يفهم منه انه بعد الاجتهاد في رد الأنساب الى أصولها، فليس على المؤمنين من مؤاخذة في الحالات التي يعجزون عن الاهتداء فيها الى النسب الصحيح. كذلك ليس عليهم جناح في كل ماسبق إليه اللسان إما على سبيل الخطأ، أو على سبيل التحنان والشفقة من الكبير للصغير، أو من سبيل التوقير والتبجيل من الصغير للكبير كما سبق وأن وضحنا.

أما «الاستلحاق» بمعنى إلحاق الولد بأبيه فإنه ليس من التبني المحرم، ولذلك أباحه الإسلام، لأن من شروط «الاستلحاق» أن يعلم المستلحق بكسر الحاء أن «المستلحق» بفتح الحاء هو ابنه، وذلك بشهادة الأم، وتحليل الحمض النووي، وبغير ذلك من الوسائل العلمية، من هنا شرع الإسلام استلحاقه، وأثبت نسبه لأبيه بشروط فصلتها كتب الفقه.

والإسلام يبيح تسمية من لايعرف أبوه بعدد من الأسماء العامة من مثل فلان ابن عبدالله، كما يبيح نداءه بنداء: يا أخي، أو يا مولاي بقصد الأخوة في الدين، والولاية فيه، ولا علاقة لذلك بأخوة النسب وقرابته، هذا إذا كان المنادي ملتزما بتعاليم الإسلام، أما اذا كان غير ذلك فإنه لايجوز نداؤه بنداء الأخوة أو الولاية لأن المسلم منهي عن التودد الى الكافر المعلن كفره، أو الى المشرك المجاهر بشركه، أو الى الفاسق المجاهر بفسقه، أو المنافق المعروف بنفاقه، وذلك انطلاقا من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا للمنافق يا سيد، فإنه إن يك سيدا فقد أغضبتم ربكم».

ونظرا للفوضى في علاقات الأسر في زمن الجاهلية، ولانتشار الفوضى الجنسية في ظل الحضارة المادية السائدة في زماننا، والتي تخطط للقضاء على نظام الأسرة في بناء المجتمعات الإنسانية، ومحاولة التشريع لذلك من خلال الأمم المتحدة تحت عدد من المسميات الخادعة مثل اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، في محاولة لإعطاء الفوضى الجنسية شرعية ملزمة يرفضها دين الله رفضا تاما، فإن الإسلام يحرص على صون الأعراض وعلى نسبة الأبناء إلى آبائهم الحقيقيين ولذلك ألغى التبني، وعظم العقوبة على جريمة الزنا، وحض على رعاية وكفالة الأيتام.

ففي زمن الجاهلية واجه الإسلام العظيم أمثال هذه الفوضى بضوابط إقامة الأسرة على أساس مما شرعه الله لها وهو ما يمكننا تطبيقه اليوم فقرر مكانا للأدعياء في الجماعة الإسلامية، وهذا المكان أقامه الإسلام على أساس من الأخوة والموالاة في الدين، وكان ذلك في حالة الأدعياء الذين لم يمكن الاهتداء إلى معرفة آبائهم الحقيقيين وفي ذلك قال - تعالى -: «فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»، وهي علاقة إنسانية لا يترتب عليها أي التزامات شرعية محددة كالتزام التوارث، والتكافل في دفع الديات، وهي التزامات يحتمها النسب بالدم والعرق، وكانت تلتزم كذلك في حالة التبني، والتعبير القرآني (فإن لم تعلموا آباءهم...) يجسد حقيقة الفوضى التي تسود المجتمعات الإنسانية في غيبة تحكيم شرع الله.

من هذا العرض تتضح حكمة التشريع الإلهي بتحريم التبني لما فيه من اختلاط للأنساب، ومن إمكانية الاطلاع على عورات غير المحارم، أو الزواج بالمحرمات، وإرث من لا حق له بإرثه.

وكانت بدعة (التبني) قد تفشت في عصور الجاهلية واستمرت إلى اليوم في غالبية المجتمعات غير المسلمة، كما لايزال عدد من المسلمين يقعون فيها عن جهل بأصول الدين.

ولكي يبطل الإسلام تلك الممارسات الخاطئة اللهم ربنا - تبارك وتعالى - خاتم أنبيائه ورسله - قبل بعثته الشريفة - أن يتبنى أحد السبايا، ثم يلغي بنوته بعد البعثة حتى يصبح ذلك تشريعا للأمة الإسلامية كلها إلى يوم الدين. وفي ذلك يروي عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: إن زيد بن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن بقول ربنا - تبارك وتعالى -: « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ...» فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - «أنت زيد بن حارثة بن شرحبيل».

وتتلخص قصة تبني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لزيد في أن زيدا كان طفلا صغيرا مع أمه عند أخواله من بني طي، فأغارت عليهم إحدى قبائل العرب فسلبتهم أموالهم وذراريهم، وكان زيد من ضمن من سبي في تلك الغارة، فقدم به الذين سبوه إلى مكة وباعوه في إحدى أسواقها إلى حكيم بن حزام الذي اشتراه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فلما تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهبت له زيدا الذي بقي في خدمته لعدد من السنين.

وكان والد زيد «حارثة بن شرحبيل» متعلقا بابنه تعلقا شديدا، وكان دائم البكاء عليه والسؤال عن مصيره بعد سبيه حتى علم بوجوده في مكة، فقدم اليها مع شقيق له ثم بالسؤال علما أن زيدا عند محمد بن عبدالله، فاستأذنا بالدخول عليه، ولما أذن لهما قال له حارثة: يا محمد: إنكم أهل بيت الله، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، وقد علمت بأن ابني عندك فامنن علينا فيه، وأحسن إلينا في قبول فدائه، فإنك ابن سيد قومك، ولك ما أحببت من المال في فدائه!!! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اعطيكم خيرا من ذلك، قالوا ما هو؟ قال: أخيره أمامكم، فإن اختاركم فهو لكم بدون فداء، وإن اختارني فما أنا بالذي أرضى على من اختارني فداء، فقالوا: أحسنت، وجزاك الله خيرا. فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زيدا وقال له: أتعرف هؤلاء؟ قال نعم، هذا أبي، وهذا عمي، فقال يا زيد: هذا أبوك، وهذا عمك، وأنا من عرفت، فاختر من شئت منا، فدمعت عينا زيد وهو يقول: ما أنا بمختار عليك أحدا أبدا، أنت مني بمنزلة الوالد والعم، فقال له أبوه وعمه: ويحك يا زيد، اتختار العبودية على الحرية؟ فقال زيد: لقد رأيت من هذا الرجل من الإحسان ما يجعلني لا أستطيع فراقه، وما أنا بمختار عليه أحدا أبدا، فأعتقه محمد بن عبدالله وتبناه، ثم خرج إلى الناس قائلا: اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني، فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامة زيد على من تبناه، وكان من أكرم الناس معه، فلم يزل زيد يدعى في الجاهلية باسم زيد بن(محمد) حتى نزل قول ربنا - تبارك وتعالى -: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ...»، فدعي(زيد ابن حارثة) ونزل قوله - تعالى -: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا».

وبعد نزول الوحي كان زيد بن حارثة أول من آمن برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الموالي.

ولمزيد من التأكيد على إلغاء التبني إلغاء كاملا، جاء في ختام سورة الأحزاب موقف آخر يدعم ذلك التأكيد، ويتلخص هذا الموقف في السماح للرجل بالزواج من مطلقة ابنه المتبنى، وكانت العرب تحرم هذا الزواج كحرمته من مطلقة الابن من النسب، لذلك انتدب الله - تعالى - خاتم أنبيائه ورسله - صلى الله عليه وسلم - في حمل مسؤولية تلك الإباحة.

وتروي لنا كتب السيرة أن رسول الله كان قد زوج مولاه زيد بن حارثة من إحدى كبريات أشراف قريش وهي السيدة زينب بنت جحش ابنة عمته، وذلك من أجل تحطيم الفوارق الطبقية الموروثة في المجتمع العربي ثم شاءت إرادة الله أن ينتهي هذا الزواج بالطلاق، بعد مراجعة زيد لرسول الله في هذا الأمر عدة مرات والرسول ينصحه بالتمسك بزوجه، على الرغم من أن الله - تعالى - كان قد أخبره بحتمية وقوع هذا الطلاق وأن الله - تعالى سوف يزوجه بزينب، وبالفعل تم الطلاق وتم زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من زينب بنت جحش مطلقة مولاه زيد بن حارثة الذي كان قد تبناه قبل بعثته الشريفة ليكون في ذلك: أولا التعويض لأم المؤمنين السيدة زينب بزواجها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد أن رضخت لأمره بتزويجها من مولى من مواليه، وثانيا: التشريع بإباحة الزواج من مطلقات الأدعياء، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى: «فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

طلب العلم بقصد المنفعة الشخصية استهانة بقيمته وإضاعة لرسالته

إن ضعف الإخلاص عند كثير من ذوي المواهب، جعل البلاد تشقى بمواهبهم وترجع القهقري. ثم إن تلويث الفضيلة بأقذار الهوى عدوان على منزلتها، ومحاولة متعمدة لإسقاط قيمتها. وهذا جرم آخر، ينشأ عن فقدان الإخلاص، والرجل الذي يقصد بعمله وجه الناس، ويذهل عن وجه ربه، رجل لا يدري لسفاهته حطة ما يصنع بعمله. إنه ينصرف عن القوي الغني، ذي الجلال والإكرام إلى الضعاف الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدا، فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك». على العسكريين جنودا أو قادة أن يجعلوا جهادهم منزها عن الشوائب، فقد ربطوا حياتهم ومماتهم بواجب مقدس، تصغر إلى جانبه الألقاب والرتب والشارات. فليؤثروا ما عند الله، وليقفوا أمامهم على التضحية المرتقبة والفداء العزيز. عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو. فقال: «يا عبدالله بن عمرو، إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا، بعثك الله مرائيا مكاثرا. يا عبدالله بن عمرو: على أي حال قاتلت أو قتلت، بعثك الله على تلك الحال».

وعلى الموظف، وهو في ديوانه، أن يعتد ما يكتبه، وما يحسبه، وما يكد فيه عقله، ويتعب فيه يده، عملا يقصد به مصلحة البلاد ورضا الله. إن الدابة قد تكدح سحابة النهار، نظير طعامها، والإنسان قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب. لكن الرجل العاقل يغالي بتفكيره ونشاطه، فيجعلهما لشيء أجل. ومن المؤسف أن هناك جمهورا من الموظفين لا يفقهون إلا منطق المال والدرجة والترقية. ويحتبسون بدينهم ودنياهم داخل هذا النطاق، ويربطون رضاهم وسخطهم وفتورهم ونشاطهم بميزانه المضطرب. قال رسول الله: «إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذي يستأكل الناس: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول: وعزك وجلالك أستأكل بها الناس. قال: لم يتفعك ما جمعت، انطلقوا به إلى النار. ثم يقول للذي كان يعبد رياء: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك، وجلالك رياء الناس! قال لم يصعد إلي منه شيء، انطلقوا به إلى النار. ثم يقول للذي كان يعبده خالصا: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به أردت به ذكرك ووجهك. قال صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنة». والإخلاص العميق، ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة، فإن العلم أشرف ما ميز الله به الأكرمين من خلقه. فمن الزاوية الشنيعة به أن يسخر لعوامل الشر، وأن تختلط به الأهواء والفتن، والعالم لم تصبه الجراحات القاتلة إلا على أيدي علماء، فقدوا الخلق الفاضل، والنزاهة المحمودة. وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب جميعا، أن يتجردوا للعلم، وأن ينظرا قبل كل شيء إلى المثل العالية والمصلحة العامة. والتعلم والتعليم ابتغاء المال وحده وتلهفا على المنفعة الشخصية المحضة، كما هو دين الألوف اليوم، هو في الحقيقة استهانة بقيمة العلم، وإضاعة لرسالته الجليلة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة». وقد كره الإسلام كذلك أن يطلب المرء العلم، حتى إذا نبغ فيه استكبر به على الناس، واتخذه وسيلة للشغب والمراء. وفي الحديث: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار». إن العلم على اتساع فنونه الدنيوية والأخروية لم يزدهر ويصل إلى المرحلة التي بلغها إلا بالتجرد الحق، والتعالي عن الأغراض الصغيرة. وهذا لا يعني البتة أن يكلف العلماء والمتعلمون بتحمل مشاق العيش، والتعرض للأزمات المحرجة. فإن إخلاص النية، لا يستلزم إعنات المخلص، وتحميله الأذى، والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قلت تركت به ثلما شتى، ينفذ منها الشيطان. وإنما يسخط الله عز وجل، على ذوي الأغراض والمرائين وغيرهم، من عباد المال والجاه، لأن المفروض في المسلم، أن يضحي بالأغراض والعلاقات والشهوات في سبيل الله، لا أن يذهل عن وجه ربه في سبيلها. وقد كان سحرة فرعون، آية في اليقين الصحيح والإخلاص العالي، عندما رفضوا الإغراء، وحقروا الإرهاب، وداسوا حب المال والجاه، وقالوا للملك الجبار: «فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى». وشتان بين هؤلاء الذين يستهينون بالدنيا في سبيل الله، وبين الذين يسخرون الدين نفسه في التقرب من كبير، أو الاستحواذ على عرض حقير.

القرآن يرد على مزاعم المشركين

عجز الكفار مع فصاحتهم عن الإتيان بسورة من كتاب الله خير دليل على أنه ليس من كلام البشر

اعترض الكفار على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يتصورون أن الرسول لا يكون بشرا مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون ملكا، أو يصحبوا بالملائكة: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا) [الإسراء: 94] (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ) [الأنعام:8] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) [الأنعام:9] أي لو بعثنا إلى البشر رسولا من الملائكة لكان على هيئة الرجل يمكنهم مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر، وكانوا يريدون رسولا لا يحتاج إلى طعام وسعي في الأسواق: (وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) [الفرقان: 7، 8] وكأنهم لم يسمعوا بأن الرسل جميعا كانوا يأكلون ويسعون ويعملون (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)[الفرقان: 20].

ويريدون أن يكون الرسول كثير المال كبيرا في أعينهم: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف: 31]. يريدون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

ونسبوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجنون: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) [الحجر: 6،7] (أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ) [الدخان: 13، 14]

ورد الله عليهم بقوله: (مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) [القلم: 2]

كما نسبوه إلى الكهانة والشعر: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) [الطور: 29، 30].

كما أنهم كانوا يعلمون أنه لا ينظم الشعر، وأنه راجح العقل، وأن ما يقوله بعيد عن سجع الكهان وقول السحرة. ونسبوه صلى الله عليه وسلم إلى السحر والكذب: (وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) [ص: 4]. (نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) [الإسراء: 47، 48]. وكانت الآيات تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تفند مزاعم المشركين، وتبين له أن الرسل السابقين استهزئ بهم، وأن العذاب عاقبة المستهزئين: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [الأنعام: 10] وتعلمه أن المشركين لا يكذبون شخصه، ولكنهم يكذبون رسالته، ويدفعون آيات الله بتلك الأقاويل: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام: 33].

لم يصدق المشركون أن القرآن الكريم منزل من الله واعتبروه ضربا من الشعر الذي كان ينظمه الشعراء، مع أن كل من قارن بين القرآن وبين أشعار العرب يعلم أنه مختلف عنها: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) [يس: 69، 70] وكيف يكون القرآن شعرا وقد نزل فيه ذم للشعراء الذين يضلون الناس، ويقولون خلاف الحقيقة. (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) [الشعراء: 224 226-]. فهو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وليس شبيها بقول الشعراء، ولا بقول الكهان: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) [الحاقة: 40-43].

وقد أدرك الشعراء قبل غيرهم أن القرآن الكريم ليس شعرا ومن قرط تكذيبهم وعنادهم قالوا: إن محمدا يتعلم القرآن من رجل أعجمي كان غلاما لبعض بطون قريش، وكان يباعا يبيع عند الصفا، وربما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف من العربية إلا اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه، ولهذا قال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل: 103]. أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن من فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. واعترضوا على طريقة نزول القرآن، فطلبوا أن ينزل جملة واحدة، مع أن نزوله مفرقا أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به وتيسير فهمه وحفظه وامتثاله: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) [الفرقان: 32].

فلما اعترض المشركون على القرآن، وعلى من أنزل عليه بهذه الاعتراضات تحداهم الله بأن يأتوا بمثله، وأعلن عن عجز الإنس والجن مجتمعين عن ذلك: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: 88].

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سور مثله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) [هود: 13، 14].

وحتى السورة الواحدة هم عاجزون عنها: (وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [يونس: 37-38].

فعجزهم مع أن الفصاحة كانت من سجاياهم، وكانت أشعارهم ومعلقاتهم في قمة البيان دليل على أن القرآن كلام الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين.